قصة للكاتب الإيراني صمد بهرنجي

السمكة الصغيرة السوداء

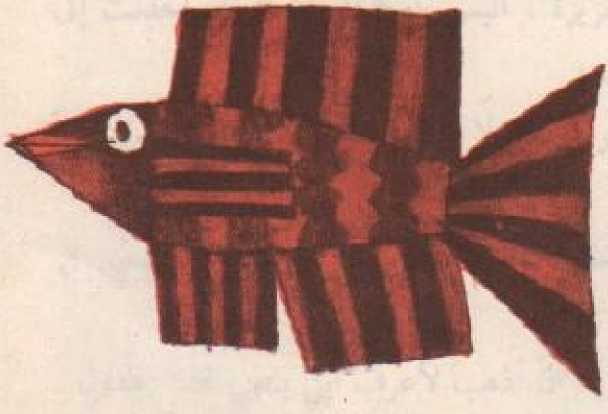


سلسلة **الأفق الجديد**

السّمكة الصّغيرة السّوداء

قصة للكاتب الإيراني صمد بهرنجي

ترجمة نبيلة سلباق بربر ▪ رسوم اللباد



الطبعة الأولى يناير (كانون الثاني ١٩٧٥ / 1975)
الطبعة الثانية أغسطس (آب ١٩٧٧ / 1977)
الطبعة الثالثة مايو (أيار ١٩٨٠ / 1980)

دار الفتى العربي

في لَيلةٍ حارَةٍ في قاعِ البحرِ ، جَمعَ جَدُّ السمكِ العجوزُ اثْنَي عَشَرَ ألفاً مِنْ أَبنائِهِ وحفَدَتِهِ وَبدأ يَروِي لَهُم هذهِ القصَّةَ :

« في سَالِفِ الزَمانِ عَاشَتْ سَمَكَةٌ صَغيرةٌ سَوْداءُ مَعَ أُمِّها في قَريَةٍ مِنْ قُرَى السمَكِ في جَدْولٍ صغيرٍ. وَكَانَ هَذا الجدولُ يَنبعُ مِنَ الجَنَباتِ الصَّخْرِيَّةِ لجبلٍ عَظيمٍ ويَصبُّ في قَرارةِ الوادِي .

عاشَتِ السمَكَةُ الصغيرةُ مَعَ أُمِّها خَلْفَ صَخرةٍ تحتَ سَقفٍ مِنَ الطحَالِب . وَكانَتِ السمَكَةُ الصغيرَةُ السوداءُ تَتجوَّلُ مَعَ أُمِّها طَوَالَ كلِّ يومٍ ذهاباً وإيَاباً في الجدْوَلِ .

ذاتَ يوم اسْتغرقَتِ السمَكَةُ الصغيرةُ في تفكيرٍ عَميقٍ ، كانَتْ تَسبحُ مُتثاقِلَةً خَلفَ أُمِّها ، فاعتقدت الأُمُّ أنَّ ابنتَها مَرِيضةٌ .

قبلَ شُروقِ الشمسِ في صباحِ اليومِ التالي أيقَظَتِ السمكةُ الصغيرةُ أُمَّها وَقالَتْ : « أُمي أُريدُ أنْ أتحدَّثَ إليكِ . »

أَجابتِ الأمُّ : « يا طِفلَتِيَ العزيزة ، أليس بإمكانكِ أنْ تؤجِّلي الحدثَ إلى وقتٍ آخر؟ دعينا نتجول الآن . »

أجابتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « لَا يا أُمِّي ، لا أستَطيعُ التجوُّلَ بعدَ اليوم ، إنَّني رَاحِلةٌ . »

قَالتْ أُمُّهَا وهيَ ما زالت مُثْقَلَةٌ بالنوم : « لكنْ أينَ تُرِيدينَ أنْ تَذْهَبي في هَذهِ الساعةِ مِنَ الصَباحِ ؟ »

ردَّتِ السمكةُ الصغِيرةُ : « أُريدُ أنْ أذهَبَ لأَعرفَ أيْنَ ينتهي هذا الجدول . أتدرينَ يا أُمِّي ؟ إنَّني أُفكِّرُ في ذلك مُنْذُ أشهرٍ ، وليلةَ أمس لَمْ أستطعْ أن أُطْبِقَ

عينيَّ ، وما أزالُ مُستغرِقةً في التفكير. وأخيراً قرَّرْتُ أنْ أكتشفَ نِهايةَ هذا الجدولِ بنفسي ، وفي الوقتِ نفسِهِ أكتشِفُ مَا يَحدُثُ في مَواطنَ أُخرى . »

ولكنَّ الأمَّ نَظَرَتْ إليها وضَحِكتْ ، ثمَّ قَالَتْ : « عِندما كُنتُ صغيرةً فكَّرْتُ في الأمرِ نفسِهِ يَا عَزيزَتِي ، إنَّ الجدولَ لَا نِهايةَ لَهُ ولا بِداية . الجدولُ هو الجدولُ ، يَتحرَّكُ دائماً ، يدورُ ، يتعرج ، إلَّا أنَّه لا يَصلُ إلى نهاية . »

قَالتِ السمكةُ الصغيرةُ : « لكنْ مَعَ ذلكَ يا أُمي ألَا تَعتقدِينَ أنَّ لكلِّ شيءٍ نِهايةً ؟ الليلُ والنهارُ يَنْتَهيان ، وكذلك الأَسابيعُ والأشهرُ والسنواتُ . »

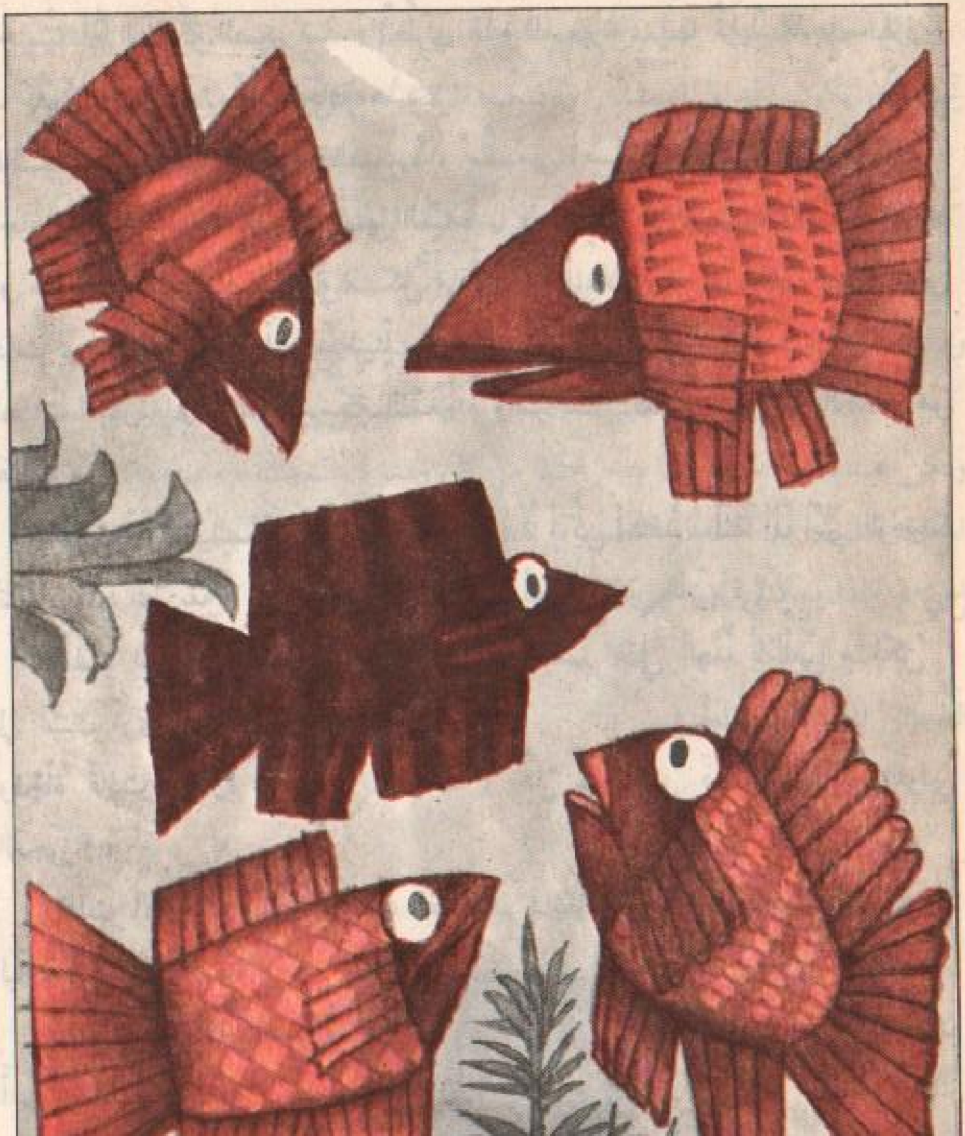
عِندَ ذَلك قاطعَتْها أمُّها غَاضِبةً : « دَعِي عَنكِ كُلَّ هذهِ الأفكارَ التافِهةَ ، وهَيَّا بِنا نَنْهضُ ونَخْرُجُ . »

قَالتِ السَّمَكةُ الصغيرة : « لَا يا أُمِّي ، أُريدُ أنْ أذهبَ إلى مَكانٍ مَا ، أُريدُ أنْ أَكتشفَ ما يَحدُثُ . إنَّني أَرغبُ أنْ أعرفَ هَلِ الحياةُ تَعني السباحةَ في مَكانٍ صَغيرٍ ولا شيءَ سِوى ذَلك ، أَوْ أنَّ هُناكَ سبيلاً آخَرَ للحياةِ في العالمِ ؟ »

عندَما انْتهتِ السَّمَكةُ الصغيرةُ من حَديثِها قَالَتْ أُمُّها : « يَا ابْنَتي العزيزةَ ، هل أُصِبْتِ بحُمَّى حَتَّى تَتكلمي بمِثْلِ هَذا ؟! العالمُ .. العالمُ .. إنَّ العالمَ هوَ حيثُ نَحيَا ، والحياةُ هيَ ما لَدَيْنا . »

وَفيمَا كَانتِ الأمُّ تَتكلَّمُ نادتْهَا إِحدَى جاراتِها قَائلةً : « أَيتُّها الجارةُ فِيم تَتحاورِينَ مَعَ ابْنتكِ ؟ »

عِندما سَمعتِ الأمُّ صوتَ الجارةِ ، خَرَجتْ منَ المنزِل ، وَتأَفَّفَتْ قَائلةً : « ما الذي يَحْصلُ في هَذهِ الأيامِ وَفي هَذا العَصْرِ؟ لَقَدْ أصبحَ الأَبناءُ الصغارُ يُريدون أَنْ يُعلِّموا أُمَّهاتِهمْ . » تَساءَلَتْ الجَارة : « وَكَيفَ ذَلِكْ ؟ »



أجابَتْ أمُّ السمكَةِ الصغيرةِ : « انْظرِي لهذهِ الصغيرةِ ، إنَّها تُرِيدُ الذهابَ لِرُؤْيَةِ ما يَدُورُ في العالَمِ . أيَّةُ سَخافةٍ هذهِ ؟ ! »

قَالتِ الجارةُ : « حَسَنًا أيَّتُها الصغيرةُ ، مُنذُ متى أصبحْتِ حكيمةً فيلسوفَةً ؟ »

أجابتِ السمكةُ الصغيرةُ : « أيَّتُها السَّيِّدَةُ ، لا أعرفُ ما تَعنِينَ بكلمةِ فَيْلَسوفةٍ ، أو مَنْ تَعنِينَ بلفظةِ « حَكيمةٍ » . كلُّ ما أعرِفُهُ أنَّني لا أُرِيدُ أنْ أكبرَ وأفتحَ عَيْنِي ذاتَ يومٍ لأَجِدَ أنَّني لا أعرفُ شيئاً سِوى ما بدأْتُ مَعْرِفَتَهُ في صِغَرِي . »

نَظرتِ الجارةُ إلى والدةِ السمكةِ الصغيرةِ وَصرخَتْ : « أيُّ نَوعٍ مِنَ الكلامِ هوَ هَذا ؟ »

تأوَّهَتْ وَالدةُ السمكَةِ الصغيرةِ قائلةً : « لَمْ أكُنْ أعتقدُ مُطْلَقاً أنَّ ابْنَتِي الوحيدةَ تَتغيَّرُ بهذهِ الطريقةِ . أيُّ شَخصٍ سيّءٍ سَمَّمَ أفكارَ ابْنَتِي العزيزةِ ؟ »

قالتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « ما سَمَّمَ عقلي أحدٌ يا أُمِّي ، لكنْ لِيَ عَيْنانِ أرَى بهما ولِيَ عقلٌ أفهمُ بِهِ . »

وفجأةً قَالتِ الجارةُ : « أيَّتُها الأختُ ، هلْ تذكُرينَ ذَلكَ الحلزونَ اللَّولبيَّ العجوزَ ؟ »

قالتِ الأمُّ : « حقاً أذكُرُهُ ، لقدْ كانَ دائماً مُرابِطاً خلْفَ طِفلَتِيَ الصغيرةِ . ليأخذْهُ الشيطانُ ! »

هَتَفَتِ السمكةُ الصغيرةُ : « أرجوكِ يا وَالِدتي ، لا تَقولِي ذَلكَ ، فقدْ كانَ أعزَّ صديقٍ لي . »

قالتِ الجارةُ : « لمْ أسمعْ في حَيَاتي أنَّ السمكَ يُمكنُ أنْ يُصادقَ الحلازينَ ، إنَّهم لَيْسوا مِنْ جنسِنا . »

صَاحتِ السمَكَةُ الصغيرةُ السوداءُ : « وَأنا لمْ أسمَعْ في حَياتي أنَّ الحلازينَ يجبُ أنْ تكونَ أعْداءً للسمكِ . ولكِنَّكُم طَردتُموهُ بكلِّ قَسْوةٍ منْ قريتِنا . »

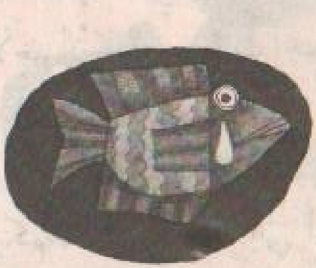
أدَّى صوتُ الحِوارِ بَيْنهُنَّ إلى تَجمُّعِ أَسماكِ القريَةِ حَوْلَهُنَّ وقدْ أغضبتْ كَلماتُ السمكةِ الصغيرةِ كلَّ السمَكِ لأنَّ فِكرةَ الرحيلِ لمْ تَخطُرْ لأحدٍ مِنْ قبْلُ .

وَسألَتْها سَمَكَةٌ هَرِمَةٌ : « هلْ تعتقدينَ أنَّنا سنكونُ مُتساهِلينَ مَعكِ ؟ »

وقالَتْ سَمَكَةٌ أُخرى : « إنها بحاجَةٍ إلى عِقابٍ رَادعٍ . »

عنْدَ ذلكَ حاولتِ السمكةُ العجوزُ أنْ تُمْسِكَ بالسمكةِ الصغيرةِ السوداءِ ولكنَّ صَديقاتِها أَحَطْنَ بِها وأخرَجْنَها منْ بَيْنِ جُموعِ السمكِ . وعندَما كنَّ يُغادِرْنَ المكانَ كانتْ أمُّ السمكةِ الصغيرةِ تَلْطِمُ بِزَعانفِها وتَبكي مُصيبتَها قائلةً : « يا إلهي ، ماذا يُمكِنُني أنْ أفعلَ ؟ لقدْ فقدتُ ابْنَتيَ العزيزةَ . »

نادتِ السمكةُ أمَّها : « لا تَبكي يا والدتي منْ أجلي ، ابكِي هٰذهِ السمَكاتِ العجائزَ المصَاباتِ بالخرَفِ . »



مضَتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ إلى الشلّالِ تَصْحَبُها صَديقاتُها الصغيراتُ اللَّواتي رافقْنَها ليُشاهِدْنَها عند بدايةِ رِحلتِها. وَقالتِ السمكةُ الصغيرةُ لِصديقاتِها بعدَ أن اعتلَتِ الشلّالَ: «آملُ أنْ أراكُنَّ مرّةً أُخرى أيّتُها الصديقاتُ، لا تَنْسَيْنَني.»

فأجَبْنَها: «وهلْ يُمكنُنا أنْ نَنْساكِ؟! نَأمَلُ أنْ نَراكِ مَرّةً أُخرى أيضاً يا صَديقتَنا الشجاعةَ.»

حملَ الشلّالُ السمكةَ الصغيرةَ السوداءَ وَهَبطَ بها إلى حَوْضٍ في قَاعٍ سحيقٍ. فأُصيبتْ بادِئَ الأمرِ بدُوارٍ، لكنّها سُرعانَ ما استعادَتْ تَوازُنَهَا خلالَ لحظاتٍ، وبَدأتْ تَسبحُ في الحَوْضِ. لَمْ تُشاهدْ منْ قبلُ مثلَ تلكَ الكميّةِ الكبيرةِ مِنَ الماءِ مُجتمعةً في مَكانٍ واحدٍ. كانتْ آلافٌ من صِغارِ الضفادِعِ تَعومُ في الحَوْضِ. وما إنْ رأتِ السمكةَ الصغيرةَ السوداءَ حتى بدأتْ تَضحكُ مِنها قائلةً: «انْظُروا إلى شَكْلِهَا.. انْظُروا إلى شَكلِها.. أيُّ نَوْعٍ من المخلوقاتِ هيَ؟!»

تأمّلَتِ السمكةُ الصغيرةُ صغارَ الضفادِعِ لحظةً وقالتْ: «أرْجوكُمْ، لا تَشْتُموني. أنا السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ. فَما هيَ أسماؤكُمْ؟ خبّروني عَنها لنُصبحَ أصدقاءَ.»

قالَ أَحَدُ صِغارِ الضفادِعِ: «نحنُ نُسمّى الشراغفَ.»

أضافَ آخرُ: «نحنُ أصحابُ النُّبْلِ والأصْلِ العريقِ.»

قالَ ثالثٌ: «لا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يَجِدَ مخلوقاتٍ أجملَ منّا في هذا العالمِ، نحنُ لَسْنا بَشِعينَ أوْ مُشوَّهينَ مِثلَك.»

حدَّقَتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ فيهم باسْتِغرابٍ وَقالَتْ: «كيفَ كَوَّنتُم هذهِ الآراءَ الجَوْفاءَ عنْ أنفُسِكم؟ على أيّةِ حالٍ إنّني أُسامحُكُم لأنّكم جهَلَةٌ.»

عِندئذٍ غَضِبَ الشراغفُ كثيراً وَصاحُوا على الفورِ: «جهَلَةٌ..؟! هلْ



تَعنِينَنا نحنُ ؟ »

قالَتِ السمكةُ الصغيرةُ : « نَعَمْ ، فَلَوْ لَمْ تكونُوا جهلَةً لَعَلِمْتُم أنَّ في العالَمِ آخَرينَ يَرَوْنَ أيضاً أنَّ أشكالَهُم أجملُ الأشكالِ . »

اشتدَّ غضبُ الشراغفِ . كانوا في قرارةِ نُفُوسِهِم يَعلمونَ أنَّ ما قالَتْهُ صَحيحٌ ، ولكنَّهُم لَمْ يشاؤوا أنْ يَخسروا المناقشة ، فقرَّرُوا الاتجاهَ في مَنحىً آخَرَ . فقالَ أحدُهُم : « لطفاً أيَّتُها السمكةُ ، لماذا تَثورينَ مُحْتَدَّةً دونَ سببٍ ؟ إنَّنا نَطُوفُ كلَّ يومٍ حولَ العالَمِ ، ونتجوَّلُ كما نشاءُ بينَ طرفَيْهِ . »

قاطعَهُ شُرغُوفٌ آخَرُ قائلاً : « نعمْ ولا نرى أحداً إلّا أنفسَنَا وآباءَنَا وبعضَ الديدانِ القليلةِ التي لا تُعَدُّ في الحُسْبانِ . »

دُهِشَتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ فَصاحَتْ : « ولكنَّكُم لَمْ تَخرُجوا مُطلَقاً مِنْ هذهِ البركَةَ ، ثمَّ تَتَحدَّثونَ عن طوافِكُمْ حولَ العالَمِ ؟ ! »

تَساءلتِ الشراغِفُ : « هلْ هناكَ عالَمٌ آخرُ غيرُ هَذا ؟ »

فَأجابتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « حسناً ، لا بدَّ أنْ تَسألُوا أنفسَكُم – على الأقلِ – مِنْ أينَ يأتي كلُّ هَذا الماءِ الذي يَسقطُ في الحوضِ . » ثمَّ تذكَّرَتِ السمكةُ شيئاً كانَ الحلزونُ العجوزُ قدْ أخبرَها بهِ فأَضافتْ قائلةً : « هناكَ أماكنُ أُخرى أيضاً خارجَ الماءِ . » عندَ ذلكَ صرخَ الشراغِفُ جميعاً وهمْ يَضحكونَ مُقهقِهِينَ : « لا بُدَّ أنَّكِ مَعتوهةٌ . أينَ يوجدُ مثلُ ذلكِ المكانِ ؟ ! أيُمكنُ أنْ يكونَ هناكَ مكانٌ دونَ ماءٍ ؟ »

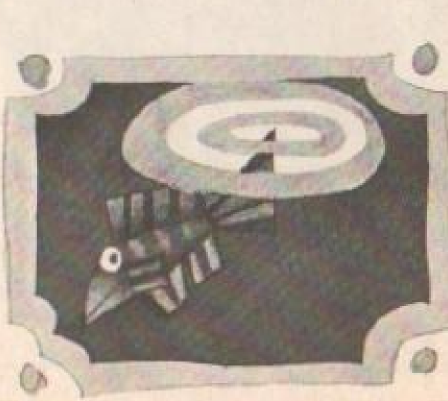
قرأَتِ السمكةُ على وجوهِهِم أنَّ جدَلَها عديمُ الجدْوَى . فقالتْ لنفسِها : « الأفضلُ أنْ أتركَ الشراغِفَ وأَمضي . ولكنْ ربَّما كان من المُسْتَحْسَنِ قبلَ ذلكَ

أنْ أقابِلَ والدَتَهمْ ..»

وفجأةً فزِعَتِ السمكةُ لدى سماعِ نقيقٍ أجشّ. كانَتِ الضفدعُ الأمُّ جالسةً على حجرٍ قُربَ الحوضِ، فقفزَتْ في الماءِ وسبحَتْ إلى السمكةِ الصغيرةِ، وقالتْ: «ها أنا ذا، ماذا تُريدينَ؟» قالتِ السمكةُ الصغيرةُ بأدبٍ: «مرحباً أيتُها السيدةُ المبجّلةُ.»

فقالتِ الضفدعُ: «إذنْ لقد انتهزْتِ الفرصةَ لتؤثّري بأفكارِكِ في هؤلاءِ الأطفالِ الصغارِ، لكنَّكِ لنْ تخدعيني أيتُها المتسوّلةُ الصغيرةُ. لقدْ طالَ عُمرِي وعرَفْتُ أنَّ العالمَ هوَ هذا الحوضُ، اذهبي في سبيلِكِ وتوقّفي عنْ خداعِ أبنائي.»

أجابَتِ السمكةُ الصغيرةُ: «لو أنّكِ عِشْتِ أضعافَ عمرِكِ فإنّكِ لنْ تتعلّمي أيَّ شيءٍ ما دُمْتِ مُصمّمةً على عدمِ الإصغاءِ لأحدٍ. كيفَ يُمكِنُ..» لكنَّ الضفدعَ لمْ تسمحْ لها أن تُنهيَ جُملَتَها، وارتدّتْ بقوّةٍ نحوَ السمكةِ الصغيرةِ، فأسرعَتْ هذهِ إلى الفِرارِ، وانزلقَتْ بسُرعةٍ تحتَ الماءِ تاركةً وراءَها بُقعةً كبيرةً منَ الوحْلِ والديدانِ في قاعِ الحوضِ.



كانَ مجْرَى الوادِي يَسيرُ مُتعرِّجاً كالثُّعبانِ بينَ الجبالِ ، والجدولُ يزدادُ عُمقاً ، وماؤهُ يَزدادُ غزارةً . لكِنْ إذا قُدِّرَ لأحَدٍ أنْ يُشرِفَ من قمّةِ جبلٍ مُطلٍّ على ذلكَ الوادِي فلنْ يبدوَ لهُ الجدولُ سِوى شريطٍ أبيض ، يُرى في نُقطةٍ منهُ صَخرةً كبيرةً قدْ هوَتْ مِنَ الجبلِ ، واستقرَّتْ في الماءِ ، بِحيثُ تَقْسِمُ المجرَى إلى قسمَيْنِ ، وقدْ ألْصقَتْ سُحْليَّةٌ كبيرةٌ بحجمِ كفٍّ مفتوحةٍ بطنَها على رأسِ الصخرةِ ، ومضتْ تَتمتّعُ بدِفءِ الشّمسِ . ومِنْ ذلكَ المَوْضعِ كانتْ السحليّةُ تَرقبُ سَرطاناً قابعاً في القاعِ يأكُلُ ضِفدَعاً قد اصْطادَها ، وعندما وصلَتِ السمكةُ الصغيرةُ إلى هذهِ النّاحيةِ وقعَتْ عَيناها فجْأةً على السّرطانِ ، فارْتعدَتْ خائفةً ولمْ تقتربْ منهُ وإنما لوَّحتْ لهُ قائلةً : « هَلا ! »

نظرَ السرطانُ إليها بطرَفِ عينِهِ وَقالَ : « ما أَلطفَ هذهِ السمكةَ ! إقتربي أيّتُها الصغيرةُ إقتربي . » أجابتْهُ السمكةُ : « أُريدُ أنْ أطوفَ العالمَ لا أنْ تأكُلَني . »

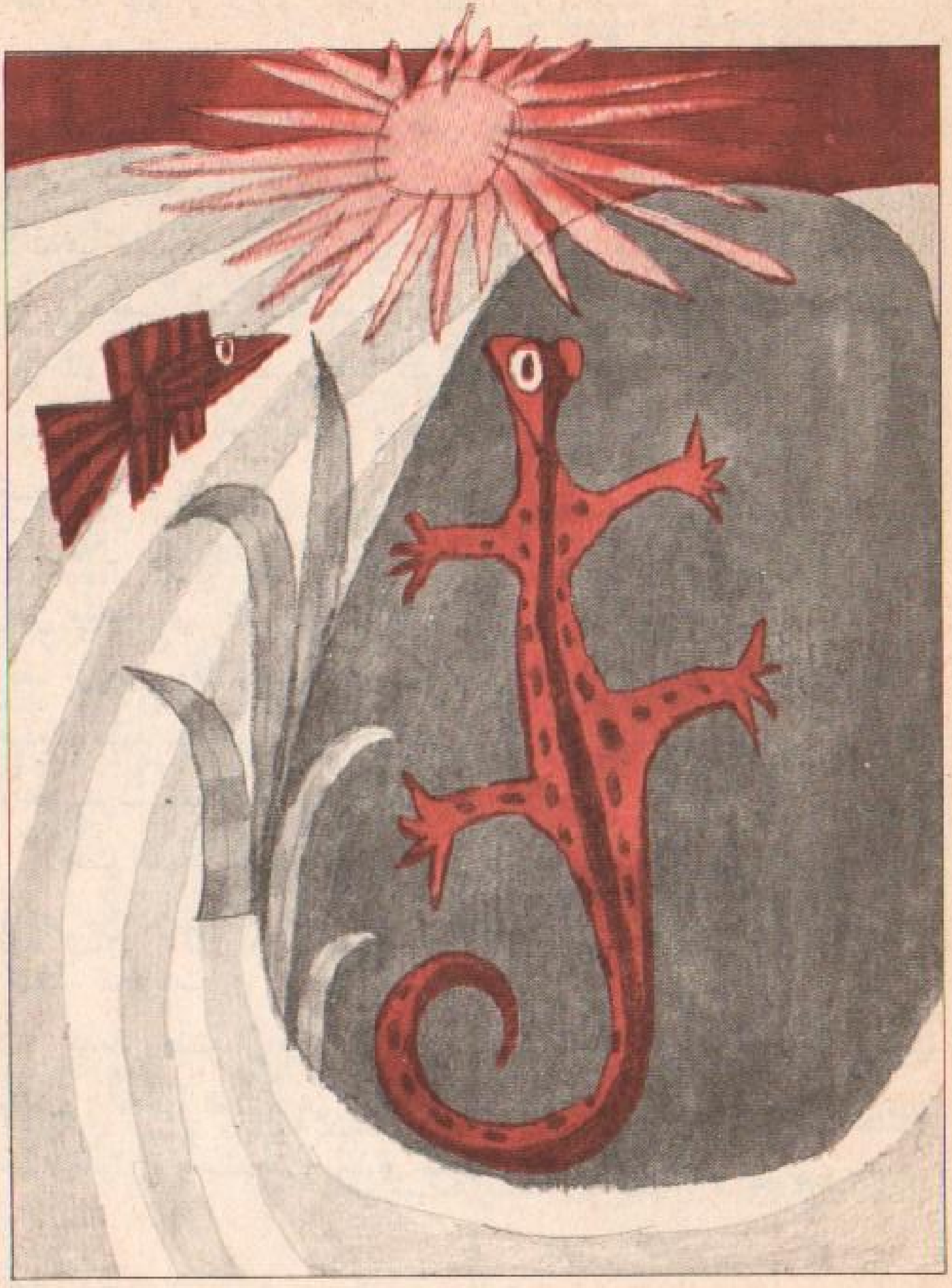
– « ولكنْ أيّ شيءٍ يُخيفُ سمَكةً كبيرةً مِثلكِ ؟ »

– « ليسَ خوْفي وهْماً ، ثمَّ إنَّ لِساني يُعبّرُ عنْ كلِّ ما تَراهُ عَيناي ويُحدِّثني بهِ عَقلي . »

أجابَ السرطانُ : « هلْ تَسمحينَ أنْ تقولي لِي مَاذا شاهدَتْ عَيناكِ ، وبِماذا أخبرَكِ عقلُكِ حتى اعتقدتِ أنّني سآكُلُكِ ؟ »

أشارتِ السمكةُ الصغيرةُ إلى الضِفْدَعِ وقالتْ : « لا تُحاولْ أنْ تَخدعَني . »

ضَحِكَ السرطانُ وقالَ : « آه تقصُدينَ الضِّفدَعَ ؟ إنّكِ تتصرفينَ تصرُّفاً صِبيانيّاً . أنَا أحقدُ على الضّفادِعِ ولذلكَ أصطادُها . إنّها تعتقدُ أنّهُ ليسَ في العالمِ مخلوقاتٌ سِواها ، وهيَ مغرورةٌ جداً . أُريدُ أنْ أُذلَّها لأُرِيَها مَنْ يملكُ العالمَ



حقاً. لا تخافي يا عزيزتي. إقتربي تعالَيْ.»

مَا إنْ انْتهى السرطانُ منْ هذهِ الكلماتِ حتى بدأ يتهادَى على أقدامِهِ الأربعِ مُقترباً من السَمَكَةِ، وَبَدَا جسمُهُ البدِينُ مُضْحِكاً للغايةِ حتى إنَّ السمكةَ نَفْسَها أخذَتْ تَضحكُ رغمَ خَوفِها. وكانَتْ السحليَّةُ أيضاً تَضحكُ وتَقولُ لهُ: «إنَّكَ لا تَعرفُ كيفَ تَمشي فكيفَ يَتأتَّى لكَ أنْ تَعرِفَ مَنِ الذي يَملكُ العالَمَ؟!»

وتَراجعتِ السمكةُ الصغيرةُ، ولاحظتْ أثناءَ تراجُعِهَا خيالاً كبيراً سَقَطَ على الماءِ، وفجْأةً خبطَ شيءٌ ما كبيرٌ أسمرُ كأنَّهُ قَصبةٌ غليظةٌ، خبطَ السرطانَ ودَفعهُ إلى اسفلِ الماءِ، فَغاصَ في الطبقةِ الرَّمليةِ في قاعِ الجَدْوَلِ والتصقَ بها ولم يَستطعْ حَرَاكاً.

خلالَ ذلكَ كانت السحليَّةُ تَضحكُ ضَحِكاً مُتواصِلاً حتى كادَ تَوَازُنُها أنْ يَختلَّ وتَسقطَ في الماءِ. رفعت السمكةُ الصغيرةُ بَصَرَها فشاهدتْ راعيةً تَحمِلُ عصاً بيدِها، وقدْ رَكَعتْ عند حافَّةِ الماءِ. ابتسمتِ الراعيةُ للسمكةِ الصغيرةِ فردَّتْ عَليها بابتسامةٍ مُماثِلةٍ، ثم اقتَرَبَ قَطيعٌ مِنَ الماعزِ والغنمِ منْ حافَّةِ الماءِ وأخَذَ يشربُ. فَملأتِ الوادي أصْدَاءُ: «ماعْ.. ماعْ.. باءْ.. باءْ..»

ظلَّتِ السمكةُ الصغيرةُ تَتأملُ المنظرَ في صمْتٍ ودهْشةٍ حتى انتهت الخرافُ والماعِزُ منْ شُرْبِها وغادرَتِ المكانَ، وأدركَتِ السمكةُ أنَّها لَمْ تَرَ في حياتِها أبداً كتلكَ المخلوقاتِ في جمالِهَا وروعتِهَا.

عندما رحلَتِ الرَّاعيةُ وقَطيعُها، نظرَتِ السمكةُ الصغيرةُ نحوَ السحليةِ وقَالَتْ: «أيَتُهَا العزيزةُ إنَّني كما تَرَيْنَ سَمَكةٌ صغيرةٌ سوداءُ أبحثُ عَنْ نِهايةِ هَذا الجدول، وأَعتقدُ أنَّكِ مخلوقٌ حكيمٌ لِذلكَ أَوَدُّ أنْ أسألَكِ عنْ شيءٍ ما.»

قالَتِ السحليةُ : «سَلي ما تشائينَ .»

قالَتِ السمكَةُ : «ذاتَ مَرَّةٍ أوصاني حلزونٌ حكيم طيبٌ أنْ أظلَّ على حَذَرٍ مِنَ البَجَعِ وسيَّافِ البحرِ وطائرِ النَّوْرَسِ ، أرجوكِ أنْ تُخبريني شيئاً عنهُم إذا كُنتِ تَعرفينَ .»

ردَّتِ السحليَّةُ قائلةً : «لا يُوجدُ سيَّافُ بحرٍ وطيورُ نَوْرَسٍ في هذهِ النَّواحي ، فسيَّافُ البحرِ يَعيشُ في البحرِ ، والنورسُ يُلازِمُ ماءَ البحرِ . أمَّا البَجَعُ فإنَّهُ ليسَ بَعيداً عنْ هذا المكانِ .. فلا تَنخدِعي مُطلقاً بهِ ولا تَقَعي في جُعبَتِه .»

– «أيَّةُ جُعْبَةٍ ؟!»

فأخبَرَتْها السَّحليَّةُ أنَّ للبجعةِ جُعْبَةً صغيرةً عندَ رقبتها تملؤُها بالماءِ . وأحياناً تدخلُ السمكةُ الجُعْبَةَ دونَ أنْ تدريَ ، ومِنْ ثَمَّ تَذهبُ إلى معدةِ البجعةِ . فإذا كانَتْ البجعةُ غيرَ جائعةٍ احْتفظتْ بصَيْدِها مِنَ السَّمكِ في الجُعْبَةِ حتى وَقتٍ آخرَ .

سألَتِ السمكةُ الصغيرةُ بصوتٍ مُرْتَعِدٍ : «ألا يُوجدُ أيُّ سبيلٍ للخروجِ إذا دخلَتِ السمكةُ الجُعْبَةَ ؟» عندَها انزلقتِ السحليةُ في ثَغْرةٍ داخلَ الصخرةِ ثمَّ عادَتْ تَحملُ خِنجراً صغيرًا ، وقالَتْ : «سوفَ أُعطيكِ هذا الخِنْجَرَ ، احْتفِظي بهِ مَعكِ دائماً فإذا وقعتِ في براثنِ البَجَعَةِ ساعَدَكِ على الخروجِ .»

خبَّأَتِ السمكةُ الصغيرةُ الخِنْجَرَ خلفَ زِعْنِفَتِها وقالَتْ : «أنتِ لطيفةٌ جِداً يا عَزيزتي ، ولا أَدري كيفَ أشكُرُكِ .»

أجابتِ السحليةُ : «لا لُزومَ للشكرِ يا بُنَيَّةُ . عِندي الكثيرُ مِنْ هذهِ الخناجرِ ، وذلكَ أنّي حينَ لا يكونُ لديَّ شيءٌ أعمَلُهُ ، أجلِسُ فأصنَعُ واحداً من أغصانِ شجراتِ الزعرورِ ، وأُعطيهِ إلى سمكةٍ حكيمةٍ مِثْلِكِ .»


الضفدعة
الأم
سلاحف
الماء
السحلية
عنزة
خروف


طائر النورس
السمكة
السوداء
البجعة
سرطان الماء

تساءَلَتِ السمكةُ في دهشةٍ: «أوه، وهلْ سبقَ أنْ مَرَّتْ أَيَّةُ سمكةٍ في هذا الدربِ؟»

قالتِ السحليَّةُ: «كثيراتٌ، وَهُنَّ الآن قدْ تجمَّعْنَ في مجموعاتٍ تُلَقِّنُ الصيَّادَ دروساً لن يَنساها.»

قَالتِ السمكةُ الصغيرةُ: «سامِحيني، إذا جَرَّ سُؤالٌ سُؤالاً.. خبِّريني كيفَ لقَّنَتِ السمكَاتُ الصيَّادَ دُروساً لنْ يَنساها؟»

ردَّتِ السحليةُ هَامسةً: «ما إنْ يَنشرُ الصيَّادُ شَبكَتَهُ حتى يَدْخُلْنَهَا معاً وَيسحبْنَ الشَّبكَةَ إلى قاعِ البحرِ.»

عندَ ذلكَ وضعتِ السحليةُ أُذُنَهَا على شَقِّ الصخرة وأصغتْ لحظةً ثمَّ قالَتْ: «سأُغادِرُكِ الآنَ لأنَّ أطفالي بَدأوا يَستيقظونَ.» ثمَّ دارتْ واختفَتْ في الشَّقِّ داخلَ الصخرةِ.

بعدَما أصبحتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ وحِيدةً من جديدٍ، عادَتْ تَسألُ نَفسَهَا السؤالَ تِلوَ الآخرِ وهيَ تَمضي في طريقِها سابحةً: «ماذا لو كانتِ البَجْعةُ أَقوى مِني؟ كيفَ يَطيقُ سيَّافُ البحرِ أنْ يأكلَ صغارَهُ؟ لماذا تُضمِرُ طيورُ النورَسِ لنا عَداوةً؟.»

كانَتْ تُفكِّرُ، وَتتعلَّمُ جديداً في كلِّ خُطوَةٍ. ثُمَّ راحتْ تَنزلِقُ بسُرورٍ فوقَ شَلَّال الماءِ وَتعودُ فتستأنِفُ السباحةَ، بَينما كانتْ أشعَّةُ الشمسِ تَمنحُها حَيَويَّةً جديدةً.

وفجأةً، شاهدتْ ظَبْياً يَعُبُّ الماءَ مِنَ النهرِ بسرعةٍ فائقةٍ. نَادَتْه: «سَلاماً أيُّها المخلوقُ الجميلُ، لِمَ هذهِ العَجَلةُ؟»

أَجابَ الظّبيُ : « الصيّادُ يُطارِدُني . أُنظري ، لقدْ أصابني . »

لمْ تتمكّنِ السمكةُ الصغيرةُ أنْ تُدرِكَ ما حَصَلَ ، ولكنّها عندَما رأتِ الظبيَ يترنّحُ بعيداً ، علِمتْ أنَّ أمراً رهيباً قد حدَثَ لهُ .

وفي مكانٍ آخرَ ، شاهدتْ عدّةَ سلاحِفَ تغفو في حرارةِ الشمسِ . وسَمِعَتْ ضَحِكَ الحَجَلِ يَتردَّدُ صَداهُ في الوادي ، وتنشَّقَتْ رائحةَ عُشْبِ الجَبَلِ تَضُوعُ في الفضاءِ وتَمْتَزِجُ بعبيرِ عُشْبِ الماءِ .

عندَ العصرِ وصلتْ إلى مكانٍ يتّسِعُ فيه الوادي وتَمُرُّ فيهِ المياهُ بكَثْرةٍ ، فغَمَرَها العُمْقُ الجديدُ بالسّعادةِ . شاهدتْ سَمَكاً غريباً ، كانَ أولَ سمكٍ تُشاهدُهُ منذُ تركتْ منزلَها ، وكانَ نحيلاً . قالتْ بعضُ السمكاتِ اللواتي التفَفْنَ حَوْلَها : « يَبدو أنّكِ غريبةٌ ! »

أجابَتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « أجَلْ ، إنّني غريبةٌ . لقد قَدِمْتُ منْ مكانٍ بعيدٍ . » سألَتْها سَمَكَةٌ من الأسماكِ النحيلةِ : « أينَ تُزْمِعينَ الذهابَ ؟ »

– « إنّي ذاهبةٌ لأجدَ نهايةَ هَذا الجدولِ . »

– « أيّ جدولٍ ؟ »

– « هذا الجدولُ الذي نَسبحُ فيهِ . »

قَالَتِ السمكةُ النحيلةُ : « أنتِ الآنَ في النهرِ . »

فلمْ تَقُلِ السمكةُ السوداءُ شيئاً .

سألَتْها إحدى السمكاتِ النحيلاتِ : « هلْ تعلمينَ أنَّ البجعةَ موجودةٌ في هذا الدربِ ؟ »

قالتْ : « نعمْ ، أعلَمُ ذلكَ . »

سَألتْها : « هلْ تَعرفينَ أنَّ للبجعةِ جعْبَةً كبيرةً جِدًّا . ؟ »
أجابتِ السمكةُ الصغيرةُ : « نعمْ ، أعلمُ ذلكَ أيضاً . »
سألتْهَا سمكةٌ نحيلةٌ أُخرى : « تَعرفينَ كلَّ هذا وما زلتِ تُريدينَ الذهابَ ؟ . »
قالتْ : « نعمْ ، مهما يَكنْ منْ أمرٍ لا بُدَّ أنْ أذهبَ . »

انتشرَ النبأُ سريعاً بينَ سمكِ تلكَ المنطقةِ بأنَّ سمكةً صغيرةً سوداءَ جاءتْ من مكانٍ بعيدٍ ، وتُريدُ الذهابَ لتجدَ نهايةَ النهرِ ، وأنّها لا تخافُ أيَّ شيءٍ حتى البجعةَ .

تاقَتْ بعضُ السمكاتِ النحيلاتِ إلى الذهابِ معها ، ولكنَّهنَّ سكتْنَ خوفاً من أهلِهنَّ .

وقالتْ واحدةٌ منهنَّ لهَا : « لولم تكنْ البجعةُ هُناكَ لأتينا معَكِ بالتأكيدِ ، ولكنّنا نخافُ من جُعْبَتِها . »

وعلى ضفَّةِ النهرِ كَانتْ تَقومُ قريةٌ للآدميِّينَ ، فراحتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ تُصغي إلى أصواتِ البشرِ ، وشاهدتْ أطفالَهُمْ يَسْبحونَ . بعدَ ذلكَ ودَّعتِ السمكةُ الصغيرةُ السمكاتِ الأُخرياتِ ، ومضتْ تسبحُ ، حتى وجدتْ نَفْسَها في الظلامِ ، ثم استسلمتْ للنومِ في القاعِ .

في منتصفِ الليلِ استيقظتْ لترى أشعَّةَ القمرِ تخترقُ الماءَ وتجعلُ كلَّ شيءٍ متلألِئاً . كانتْ السمكةُ الصغيرةَ تُحبُّ القمرَ حُبّاً شديداً . ففي موطنِها عندما كانَ ضوءُ القمرِ يَرقصُ على الماءِ في الليالي الصيفيةِ ، كانتْ تهرعُ من تحتِ السَّقفِ العُشْبيِّ في منزلِها لتتحدَّثَ إلى القمرِ ، وغالباً ما كانتْ أمُّها تستيقظُ وتناديها لتعودَ إلى المنزلِ .



همستِ السمكةُ وهيَ تتطلّعُ إلى القمرِ: «مَرحباً يا قمري الجميلَ، إنني أطوفُ حولَ العالمِ.»

أجابَ القمرُ: «لكنَّ العالَم واسعٌ جداً ولا يُمكنُكِ مُشاهدتُهُ كلَّه.»

قالتْ: «حَسَناً سأذهبُ حيثُ أستطيعُ.»

عندها قالَ القمرُ: «أودُّ أنْ أبقى معَكِ، ولكنَّ غيمةً كبيرةً سوداءَ قادمةٌ نحوي، وسوفَ تحجبُ ضَوْئي.»

قالتِ السمكةُ: «أيُّها القمرُ الجميلُ إنَّني أحبُّ ضَوْءَكَ الجميلَ، وأُريدُهُ أنْ يُشِعَّ عليَّ دائماً.»

قالَ القمرُ: «يا عزيزتي السَمَكَة، إذا رَغبتِ في أنْ تَعرفي الحقيقةَ فاعلمي أنَّه لا ضَوْءَ لي. إنَّ الشمسَ هيَ التي تُعطيني الضوءَ وأنا أعْكِسُهُ على الأرضِ. وهلْ عَرَفْتِ أنَّ بَشراً وَصلوا إلى سَطْحي؟!»

قالتِ السمكةُ الصغيرةُ في دهشةٍ: «ولكنَّ ذلكَ مُستحيلٌ.»

قالَ القمرُ: «كلَّا إنَّه ليس مُستحيلاً لكنَّهُ صعبٌ جداً، وهؤلاءِ البشرُ يستطيعونَ أنْ يفعلوا أيَّ شيءٍ متى صَمَّموا على فِعْلِهِ.»

لمْ يستطعِ القمرُ أنْ يُنْهِيَ ما أرادَ أنْ يَقولَهُ لأنَّ الغيمةَ غطَّتْ وجْهَهُ، وعادَ الظلامُ يُخيِّمُ مِنْ جديدٍ، وأصبحَتِ السمكةُ الصغيرةُ وحيدةً. ولبضعِ دقائقَ حدَّقَتْ في الظُلمةِ متعجِّبةً ثمَّ انزلقتْ تَحتَ سطحِ النَّهْرِ وعادتْ إلى النَّومِ.

استيقظتْ مُبكِّرةً في الصباحِ على أصواتِ السَّمكاتِ النحيلةِ. وعندما رَأيْنَها تَستيقظُ قُلْنَ لها جميعاً: «صباحَ الخيرِ أيتها السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ.»

عرفَتِ السمكةُ رفيقاتِها فأجابَتْهنَّ: «صباحَ الخير، إذنْ لقدْ قرَّرْتُنَّ أنْ

تتبعْنَني . »

قالت واحدةٌ منهنَّ : « نعمْ ، ولكنَّ التفكيرَ في البجعةِ ما يزالُ يُقلِقُنا

ردَّتِ السمكةُ السوداءُ : « ما إنْ نبدأُ في التحرُّكِ حتى تزولَ مخاوفُكُنَّ . »

ما كادَتِ السَّمكةُ تُتِمُّ كلامَهَا هذا حتى شعَرْنَ بأنَّ النهرَ قد ارتفعَ بشكلٍ غريبٍ وامتدَّ فوقَ رأسِها غطاءٌ كبيرٌ . كانَ الظلامُ في كلِّ مكانٍ ولا مجالَ للهربِ ، فأدركَتِ السمكةُ الصغيرةُ ، انهنَّ وقعنَ في جُعْبَةِ البجعةِ . فهتفَتْ : « لقدْ وقعنا في جُعْبَةِ البجعةِ ولكنَّ الأملَ ما زالَ موجوداً . »

أخذتِ السمكاتُ النحيلاتُ في العويلِ والبكاءِ . وقالتْ واحدةٌ منهنَّ : « ليسَ أمامَنا سبيلٌ للخروجِ ، وكلُّ ذلكَ بسببِكِ . أنتِ التي أغْوَيْتِنا وأَخْرَجْتِنا عنْ طريقِ الصوابِ ، والآنَ سوف تَبْتلِعُنا البجعةُ جميعاً . »

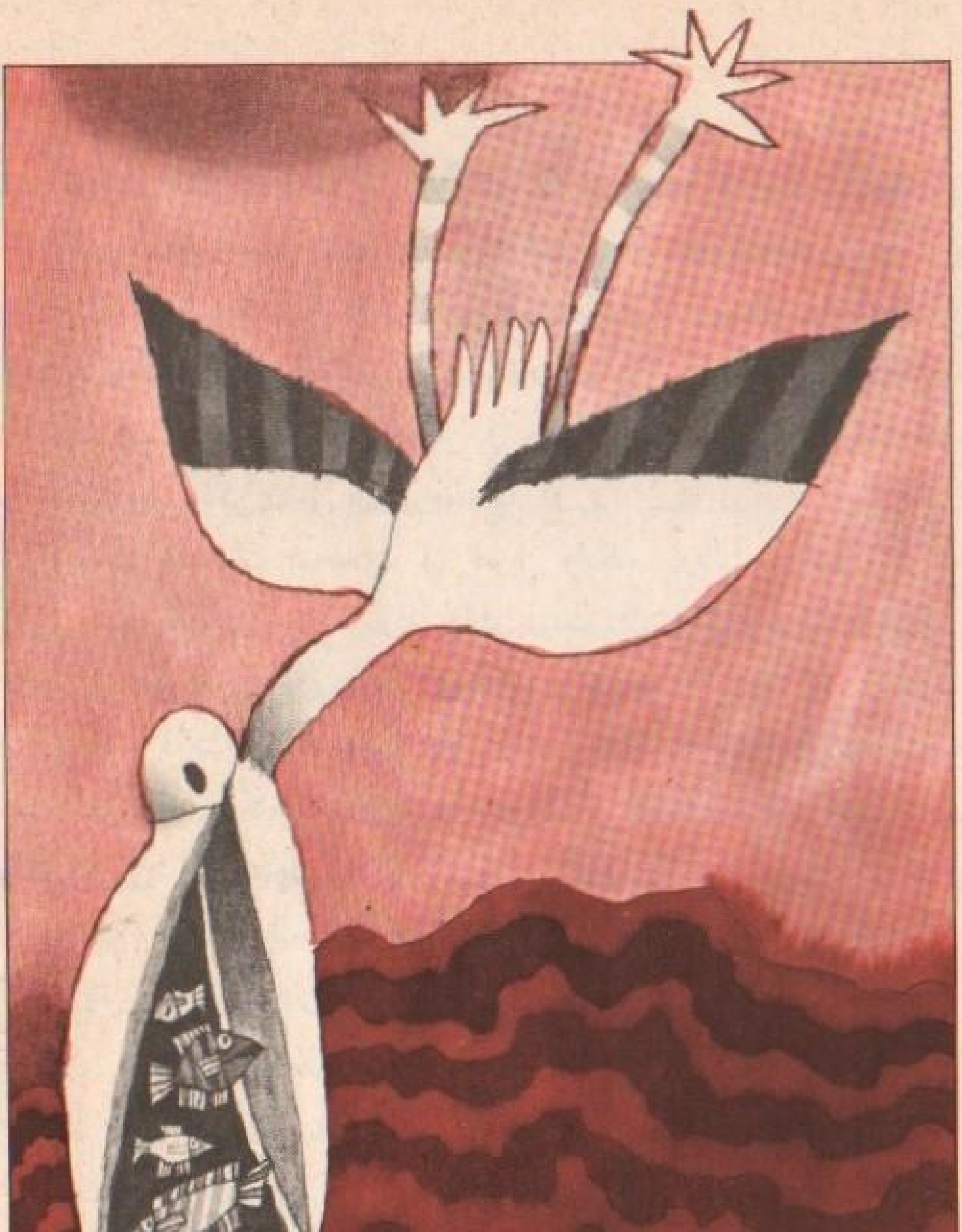
فجأةً ، دوّتْ ضحكةٌ رهيبةٌ خلالَ الماءِ ، وقالتِ البجعةُ وهيَ تضحكُ : « ما أحْسَنَ هذهِ السمكاتِ النحيلاتِ ، أشعُرُ نحوَكُنَّ بالأسفِ ، ها .. ها .. ها .. ولكنّي لا أُريد أنْ أبتلعكُنَّ . »

قالتِ السمكاتُ النحيلاتُ متوسِّلاتٍ : « يا صاحبةَ السِّيادةِ ، لقدْ سمِعْنا كثيراً عنكِ ، نرجوكِ أنْ تكوني لطيفةً وتفتحي فمَكِ المباركَ قليلاً كي نخرُجَ ، وسنشكرُ لكِ عملَكِ النبيلَ إلى الأبد . »

قالتِ البجعةُ : « إنني لا أُريدُ أنْ أبتلعكُنَّ فوراً .. إنَّ لديَّ طعاماً محفوظاً . انظرْنَ أسفلَ منكُنَّ . »

كانت بعضُ السمكاتِ الكبيرةِ والصغيرةِ تتمدَّدُ ميتةً .

قالتْ سمكةٌ : « يا صاحبةَ السَّعادةِ ، أيّتها البجعةُ المحترمةُ ، إنّنا لم نفعلْ



شيئاً ، نحنُ بريئاتٌ ، إنها السمكةُ السوداءُ هذه التي أغوَتْنا . »
فصاحَتِ السمكةُ السوداءُ : « أيّتُها الجبانات ، هلْ تعتقدنَ حقّاً أنّ هذا الطائرَ سيُخلي سبيلكُنَّ بتذلّلِكُنَّ ؟ ! »
صِحْنَ بها : « أنتِ لا تعرفينَ عمّ تتحدّثين . سوف ترَيْنَ بعد فترةٍ كيف أنّ صاحبةَ السيادةِ ستعفو عنّا وتبتلعُكِ أنتِ وحدَكِ . »
قالتِ البجعةُ : « نعمْ سأعفو عنكُنَّ ، ولكنْ بشرطٍ واحدٍ . »
أجَبْنها : « ما هُوَ ؟ أخبرينا . »
قالتِ البجعةُ : « اخنقْوا هذهِ السمكةَ السوداءَ المتطفِلةَ ، وعندَ ذلكَ أُطلِقُ سراحَكُنَّ . » ارتدّتْ السمكةُ السوداءُ إلى الزاويةِ وقالتْ : « لا توافقْنَ ، إنَّ هذا الطائرَ الماكرَ يُريدُنا أنْ نتشاحنَ ، لديَّ خطّةٌ . »
لكنَّ السمكاتِ النحيلاتِ كُنَّ حريصاتٍ على الخروجِ من جُعْبَةِ البَجْعَةِ فلَمْ يُصْغِينَ لها ، بلْ هَجمْنَ نحوَ السمَكَةِ السوداءِ ، فتراجعتْ نَحْوَ طَرَفِ الجعبةِ .
قالتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « أيّتُها الجبانات ، لقدْ وقعتُنَّ على كلِّ حالٍ ، وليسَ لكُنَّ أيُّ طريقٍ للخَلاصِ ولا تَقدرْنَ أنْ تتغلّبْنَ عَليَّ . »
ولكنَّهنَّ صَرَخْنَ : « لا بُدَّ أنْ نَخْنُقَكِ ، نُريدُ حرّيّتنا . »
صرخَتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « هل جُنِنْتُنَّ ؟ حتى لَوْ خنقْتُنَّني فإنّكُنَّ لنْ تَتَحرّرْنَ ، لا تَغُرّكُنَّ البجعةُ . » ، وتابعتْ قائلةً : « أصْغِينَ ، سوفَ أُبرهِنُ لكُنَّ على ذلكَ . سأنزِلُ بينَ السمكاتِ الميّتةِ وأتظاهرُ بالموتِ أيضاً ، عندَ ذلكَ ستَرَيْنَ إذا كانتْ ستُطلِقُكُنَّ أوْ لا . »
وعندَ ذلكَ سحبتِ الخِنْجَرَ الذي أعطَتْهُ السحليةُ لها وقالتْ : « إقبَلْنَ ما

اقترحتُه أو سأقتلكُنَّ بهذا الخنجرِ ثمَّ أُمزِّقُ الجعبةَ وأنجو بنفسِي.»

ناحتْ إحدى السمكاتِ النحيلاتِ قائلةً: «كُفِّي عن سخافاتِكِ، لا أستطيعُ الاحتمالَ أكثرَ منْ ذلكَ، هو.. هو.. هووو.»

قاطعتِ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ بُكاءَ السمكةِ النحيلةِ قائلةً: «يا للتَّعاسةِ، ما كُنَّا بحاجةٍ إلى هذا، لماذا تَبكينَ يا صغيرتي؟».

ثم أخرجت خِنجَرَهَا، ولم يكنْ للسمكاتِ خيارٌ سِوى الموافقةِ على خُطَّتِها. وتَظاهرتِ السمكةُ السوداءُ بالموتِ فصعدتِ السمكةُ الثانيةُ وقالتْ للبجعةِ: «يا سعادةَ البجعةِ..لقدْ خنَقْنا السمكةَ الصغيرةَ السوداءَ.»

ضَحِكَتِ البجعةُ وقالتْ: «لقد قُمْتُنَّ بعملٍ جيِّدٍ، فكافأةً لكُنَّ على عملِكنَّ سأبتلِعُكُنَّ وأنتنَّ على قيدِ الحياةِ، وبذلك تَقُمْنَ برحلةٍ طيبةٍ في بطني.»

لم يَكنْ أمامَ السمكاتِ النحيلاتِ أَيَّةُ فرصةٍ، فقد ابتلعتهنَّ البجعةُ بسرعةٍ مثلِ التيَّارِ الكهربائي. أخذتِ السمكةُ السوداءُ خِنْجَرَهَا، وبضربةٍ واحدةٍ مزّقتْ جدارَ البجعةِ، وفرَّتْ عبْرَ الثقْبِ. صاحتِ البجعةُ منَ الألمِ، وغمستْ رأسَهَا في الماءِ. ولكنَّها لم تَستطعْ أنْ تلحقَ بالسمكةِ السوداءِ التي أخذتْ تَسبحُ دونَ توقُّفٍ.



اختفتِ الجبالُ ، وأخذَ النهرُ يعبرُ خلالَ سهلٍ منبسطٍ حيثُ يصبُّ بعضُ الجداولِ في النهرِ فيزدادُ عُمْقُ المياهِ . وفيما كانتِ السمكةُ تتمتّعُ بالماءِ الوفيرِ ، أدركتْ فَجْأةً أنْ ليسَ للنهرِ قاعٌ (أو أنها على الأقلِّ لا تستطيعُ رؤيتَهُ) . مالتْ إلى هذهِ الناحيةِ ثمَّ إلى الأخرى دونَ أنْ تصطدمَ بشيءٍ . كانَ هُناكَ ماءٌ كثيرٌ بدأَتْ تَضِلُّ فيهِ ، راحتْ تَندفعُ في كلِّ اتجاهٍ يدلُّها قلبُها عليهِ . ومعَ ذلكَ لم تصلْ إلى شيءٍ ، وفجأةً شاهدتْ حيواناً طويلاً يَسبحُ نحوَها مُنقضاً كالبرقِ . إنَّهُ سيَّافُ البحرِ بِشَفْرَتِهِ المسنَّنةِ الطرفَيْنِ . واعتقدتِ السمكةُ الصغيرةُ أنَّها سوفَ تنشطرُ قسمَيْنِ في أيَّةِ لحظةٍ . لكنَّها قامَتْ بحركةٍ مُراوغةٍ سريعةٍ أنقذَتْها ، وارتفعتْ قريباً من سطحِ الماءِ .

بَعدَ فترةٍ عادتْ للنزولِ إلى الأسفلِ لمشاهدةِ القاعِ ، وفي طريقِها التقتْ مجموعةً من السمكِ عَدَدُها آلافٌ وآلافٌ . فقالَتْ لإحدى السمكاتِ : « أيَّتُها الأختُ ، إنّي غريبةٌ ، جئتُ من مكانٍ بعيدٍ . تُرى أينَ أنا ؟ »

نادتِ السمكةُ رفيقاتِها وقالَتْ : « انظرْنَ هذهِ واحدةٌ أُخرى . »

واستدارتْ نحوَ السمكةِ الصغيرةِ السوداءِ وقالَتْ : « أيَّتُها الصديقةُ أهلاً بكِ في البحرِ . »

أضافَتْ سَمَكَةٌ أُخرى : « كلُّ الأنهارِ والجداولِ تَنتهي هُنا ، لكنَّ بَعْضَها يَصبُّ في المستنقعاتِ طبعاً . » وأضافَتْ أُخرى : « يُمكِنُكِ الإلتحاقُ بمجموعتنا في أيِّ وقتٍ تشائينَ . »

إنفعلت السمكةُ الصغيرةُ لأنَّها وصلتْ إلى البحرِ فأخذتْ تتكلَّمُ بحماسةٍ وسُرعةٍ . ضحكتِ السمكاتُ منها ، وطلبْنَ إليها أنْ تتحدثَ بهدوء . أخيراً

قالتْ : « قبلَ أنْ ألتحقَ بمجموعتكنَّ ، أوَدُّ أنْ أنظرَ إلى ما حَولي ، وأنا أرغبُ في أنْ أكونَ معَكُنَّ في المرَّةِ القادمةِ عندما تَسحبنَ شبكةَ الصيَّادِ إلى داخلِ البحرِ . »
فقالتْ سمكةٌ كبيرةُ السنِّ : « ستُحقِّقينَ رَغبَتَكِ قريباً . اذهبي أوَّلاً ، ولكنْ كُوني حَذِرَةً إذا صَعدتِ إلى سطحِ الماء ، لأنَّ النوْرسَ أصبحَ جريئاً جِداً في هذهِ الأيامِ ، ولا يَمرُّ يومٌ دون أنْ يصطادَ أربعاً أو خمساً مِنَّا . »

تركتِ السمكةُ الصغيرةُ سَمكَ البحرِ وبدأتْ تَسبحُ كما يَحْلُو لها . وبعدَ فترةٍ صعدتْ إلى مَقرُبةٍ من سَطْحِ الماءِ . كانتِ الشمسُ دافئةً ساطعةً أحسَّتْ بها تَلسعُ ظَهرَها ، وبسعادةٍ ولُطفٍ أخذَتْ تُجدِّفُ على السطحِ مُدَمْدِمَةً بأُغنيةٍ تعلَّمتْها في قريتِها ، وقالَتْ لنفسِها : « كلُّ الأنهارِ والجداولِ تَصبُّ هنا وتَصنعُ البحرَ . لكنَّها في تفرُّقِها لا قوةَ لها ، فإذا تَجمَّعتْ أصبحَت مُحيطاً جبَّاراً . وبالطريقةِ نفسِها كلُّ السمَكِ الذي وجَدَ طريقَهُ إلى البحرِ بدأ وحيداً خائفاً ، لكنَّهُ حينَ تَجمَّعَ واتَّحدَ أصبحَ قويّاً جداً . أريدُ أنْ أعيشَ بقدرِ ما أستطيعُ ، ولكنْ لَوْ متُّ فإنَّني أموتُ سعيدةً لأنِّي عَرفْتُ أنَّ إخواني وأخواتي مُتآلفونَ مُتَّحدونَ في البحرِ . إنَّهم أقوى من الصيَّادِ ، ولا يهمُّ كم من السمكاتِ قدْ أكلها سيَّافُ البحرِ والنورَسُ ، لأنهُ سيظلُّ هناكَ دائماً الكثيراتُ الكثيراتُ التي تُواصلُ النضالَ ، وستَتجمَّعُ في يومٍ من الأيَّامِ جميعُ السمكاتِ الشجاعةِ في جميعِ جداولِ العالمِ وتُصبحُ من القوةِ بحيثُ لنْ يَجرُؤَ أقوى أعدائِها على إيذائِها . عندَ ذلكَ سيُصبحُ كلُّ السمكِ حُراً . »

كانتْ غارقةً في هذهِ الأفكارِ عندمَا شعرتْ فجأةً أنَّها تُسحَبُ خارجَ الماءِ . لقد جاءَ طائرُ النوْرَسِ منْ ورائِها وأَطبقَ عليها منَ الخلفِ بمِنقارِهِ . بدأتِ السمكةُ



تُناضِلُ بشدَّةٍ لتُنقِذَ نفسَها ولكنْ دونَ جدْوَى ، فقدْ قبضَ طائرُ النورسِ على خَصْرِها بقوَّةٍ كادتْ تُزْهِقُ روحَهَا ، وودَّتْ لَو ابتلعَها النورَسُ ، فربَّما أُتيحَ لها أنْ تَعيشَ داخلَ رطوبةِ بطنهِ بضعَ لحظاتٍ . سألَتْهُ : « لماذا لمْ تَبتلعْني حتى؟ إنَّني واحدةٌ من السمكاتِ اللواتي يُصبِحُ جسمُهُنَّ سامًّا عند الموتِ . » لم يقلِ النورسُ شيئاً ولكنه فكَّرَ في نفسِه : « هذه الصغيرةُ الذكيَّةُ ماذا تُريدُ؟ تُريدُني أنْ أبدأَ الحديثَ ، وبذلكَ تهربُ؟ ! ! »

كانَ الشاطئُ يَبدو مرئياً واضحاً . وبدآ يَقتربانِ منهُ ويقتربان . وكانتِ السمكةُ الصغيرةُ تُدرِكُ ماذا يَعني وصولُهَا هُناكَ . فقالتْ : « أعْرِفُ أنَّكَ تُريدُ أنْ تأخذَني لأطفالِكَ ، ولكنَّني سأكون ميّتةً قبلَ وصولِكَ هُناكَ . وبعدَ ذلكَ سأُصبحُ مثلَ كيسٍ مِنَ السمِّ . عليكَ أنْ تُفكِّرَ في أطفالِكَ على الأقلِّ . »

فكَّرَ النورسُ : « ها .. الحَذَرُ شيءٌ جيدٌ ، سآكُلُها وحدِي وأصطادُ أُخرى لأطفالي ، هلْ هناكَ خدْعةٌ في الأمرِ؟ »

كانَ يفكِّرُ في هذهِ الأمورِ عندما لاحَظَ أنَّ جسدَ السمكةِ السوداءِ بَدأَ يَترنَّحُ وَيَجْمَدُ . ففكَّرَ : « هل ماتتْ؟ لا أستطيعُ أكلها بعدَ الآن ، لماذا خسرتُ سمكةً جيِّدةً كهذهِ دونَ سببٍ؟ » وقالَ لأسيرتِهِ : « أيَّتُها الصغيرةُ أما زالَ بكِ بعضُ الروحِ كي آكلَكِ؟ أجيبيني .. أنا .. » وفي منتصفِ الكلامِ قفزَتِ السمكةُ الصغيرةُ خارجَ منقارِ النورَسِ . كانتْ هابطةً في الفضاء وانقضَّ النورسُ خلفَها . فتحَتِ السمكةُ الصغيرةُ فمَها الجافَّ للريحِ الرطبةِ فوقَ الماءِ . لكنْ ما إنْ وَصلَتْ إلى الماءِ والتقطتْ أنفاسَهَا حتى غَطَسَ النورسُ في الماءِ وابتلعها هذه المرةَ بسرعةٍ ، حتى إنها خلالَ لحظاتٍ لم تَدرِ ماذا حصلَ لها . أحسَّتْ أنَّ كلَّ شيءٍ أصبحَ

مُظلِماً وأنْ لا سبيلَ الى الخروج . وكانَ هناك أيضاً صوتٌ ما ، إنَّه صوتُ بُكاءٍ . عندما اعتادتْ عَيْناها على الظُلْمَةِ رأتْ سَمَكَةً نحيلةً مُنكمشةً في الزاوية تَبكي وتُنادي أُمَّها . صَعدتْ إليها وسألَتْها : « أيَتُها الصغيرةُ لماذا تبكينَ وتُنادينَ أُمَّكِ ؟ قِفي وفكِّري في حلٍّ . »

- « مَنْ تكونينَ على أيِّ حالٍ ؟ » سألَتْها السمكةُ النحيلةُ : « ألا تَرَيْنَ أيَّةَ مُشكلةٍ تَحبطُ بي وا .. وا .. »

قالتْ السمكةُ الصغيرةُ السوداءُ : « حقاً هذا يَكفي ، هل تُريدين أنْ تحطِّمي سُمْعَةَ كلِّ السمكِ ببكائكِ الكثيرِ ؟ »

عندَ ذلك تَوقَّفتِ السمكةُ النحيلة عن البكاء ، فابتسمتْ لها السمكةُ السوداءُ وقالتْ : « يَجِبُ أنْ نَقتلَ النورسَ كي نُنقذَ السمكَ من خَطرِهِ . يَجِبُ أنْ تَكوني شُجاعةً جِداً . »

أَجابَتْها السمكةُ النحيلةُ بحُزنٍ : « ولكنَّنا نموتُ ، كيفَ يُمكننا قَتْلُ النورسِ ؟ » عَنَد ذلك أبرزتِ لها السمكةُ السوداءُ خِنجَرها وأخبرتْها أنَّها ستُمزِّقُ مَعِدَةَ النورسِ من الداخلِ . وقالتْ لها : « الآنَ أصغي جَيداً ، يَجِبُ أنْ تَركُضي في كلِّ الاتجاهاتِ وذلكَ سَوْفَ يُدَغدِغُهُ فَيصْعُبُ عليهِ عندَها الطَّيرانُ . »

بَدأتِ السَمَكَةُ النَحيلَةُ تُدَغْدِغُ النَوْرَسَ فبدأَ يتلوَّى حتى كادَ أنْ يَقَعَ في الماء . خلالَ ذلك بَدأتِ السمكةُ السوداءُ تَقطعُ جانبَ المِعدةِ . وقالَتْ لزميلَتِها : ما إنْ أنتهي حتى تَقْفِزي ، هيَّا ! »

أحدَثَتِ السمكةُ الصغيرةُ ثقباً كبيراً يَكفي لإخراجِ السمكةِ النحيلةِ وحينَ أصبحتْ على مُوازاتِها دفعَتْها إلى الخارج . أمَّا هيَ فإنَّها استمرتْ في طَعْنِ

النورسِ. وبعدَ لحظاتٍ أَصبحَتْ السمكةُ النحيلةُ في الماءِ. انتظرَتْ لكنَّها لم تَرَ أثراً للسمكةِ السوداءِ. ثم شاهدت النورسَ يَترَنَّحُ ويَصرخُ، وأخيراً رأتْ رِجلَيْهِ تَنتفِضانِ وَبدأ بالسقوطِ في اتجاه الشاطئِ.

شاهدَتْ السمكةُ النحيلةُ أنَّ النورسَ لم يَعُدْ يَتحرَّكُ بعدَ سقوطِهِ. لقدْ ماتَ ومعَ ذلكَ فلا أثرَ للسمكةِ الصغيرة السوداء.»

قالَ الجدُّ راوي الحِكَايةِ: «وحتى هذا اليوم يا أطفالي لم يَظهرْ لها أيُّ أثرٍ.» ثم وقفَ الجدُّ وقالَ لأولادِهِ وحفَدَتِهِ الاثني عشرَ ألفاً: «الآنَ وقدْ انتهتْ قصتُنا، حانَ الوقتُ كي تَذهبَ كلُّ السمكاتِ الصغيراتِ للرُّقادِ. اذهبْنَ للنومِ الآنَ.» فقال الأطفالُ: «ولكنَّكَ يا جدَّنا لم تُخبِرْنا ماذا حدثَ للسمكةِ النحيلة؟» أجابَ الجدُّ: «يا للسَّماءِ، تِلكَ قِصةٌ بحدِّ ذاتِها. سنترُكُ ذلكَ حتى مساءِ الغدِ. والآنَ حانَ وقتُ النومِ: طابتْ ليلتُكُمْ.»

ليلَتَها قالتْ إحدى عشرةَ ألفٍ وتسعُ مائةٍ وتسعٌ وتسعونَ سمكةً إحداهن للأخرياتِ: «طابَتْ لَيْلَتكُنَّ.» وذهبَ الجدُّ والجدَّةُ أيضاً للنومِ، إلَّا سمكةً صغيرةً حمراءَ حاولتْ جاهدةً أن تَنامَ لكنَّها لَمْ تَستطعْ، وبقيتْ ساهرةً طوالَ الليلِ تفكِّرُ في البحرِ.



دار الفتى العربي
للنشر والتوزيع

كورنيش المزرعة ـ بناية الترك ـ ص ب ٢٣٦/١٩٥ ـ بيروت ـ لبنان

سلسلة الأفق الجديد



تضم مجموعة من أجمل القصص الخيالية المثيرة
بعد قراءة قصص هذه السلسلة نجد أننا قد أحببنا
أبطالها رغم معرفتنا أنهم ليسوا أبطالاً من عالم الواقع

صدر من السلسلة

- **القنديل الصغير** قصة كتبها ورسمها غسان كنفاني
- **حارسة النبع** قصة زين العابدين الحسيني
- **السمكة الصغيرة السوداء** قصة الكاتب الإيراني صمد بهرنجي
- **البلح الأحمر** قصة الدكتور محجوب عمر